أولا : مدخل عن نشأة الكتابة في التاريخ

اختلف في نشأة الكتابة ، متى كانت بداياتها ، ومن أول من اخترعها ، فالبعض يرى أن الكتابات الأولى التي استعملها الإنسان لم تكن صناعة بشرية أصلا وأنها توقيف من الله تعالى ، أنزلت على آدم - عليه السلام - في إحدى وعشرين صحيفة ، وقيل إن آدم - عليه السلام - هو من وضعها ، كتبها في طين وطبخه قبل أن يموت بثلاثمائة سنة ، ولما كان غرق الطوفان أصاب كل قوم كتابهم ، والحقيقة أن المعرفة الحقيقية لأصل الكتابة وكيف كانت نشأتها ليس بالأمر السهل لغموض تاريخ تلك الحقبات ، ولكن المطلع على النقوش والآثار التي خلفتها الحضارات القديمة قد يميل إلى أن الكتابة لم تكن توقيفية من الله تعالى ، ولم تكن اختراعا فجائيا من وضع أحد بعينه .

وإذا وقع الاتفاق على أن الكتابة هي من صنع الإنسان لا توقيفية من الله تعالى ولا من وضع آدم - عليه السلام - ، فهذا يعني أن الكتابة لم تكن بالشكل المتعارف عليه الآن ، ولكنها مرت بعدة مراحل طويلة عبر التاريخ ، وذلك تبعًا لتطور حياة الإنسان وبيئاته المختلفة ، حتى وصلت إلى هي ما عليه في هذا العصر، وتتفق الدراسات على أن ظهور أول كتابتين كان في الشرق الأدنى القديم ، وهما الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين ، والكتابة الهيروغليفية في مصر .

ويميل أكثر الدارسين إلى أن البداية الحقيقية للكتابة كانت في بلاد الرافدين وهي الكتابة المسمارية ، ثم تبعتها مصر بفترة متقاربة ، وعموما فقد مر تطور الكتابة بمجموعة من المراحل نختصرها كالآتي :

1 - المرحلة التصويرية :

وهي المرحلة الأولى من مراحل الكتابة وأول أنواعها ، وفي هذه المرحلة كان الإنسان يعبر عمّا يريد قوله عن طريق الرسم ، فإذا أراد أن يعبر عن شجرة رسمها وهكذا ، وقد روى هيرودوت مضمون رسالة دونت بالصور بعثتها قبائل السكيت إلى داريوس ملك الفرس قبل خوض القتال معه ، وقد اشتملت الرسالة على رسم عصفور وفأر وضفدعة وخمسة سهام ، فقام جوديا مساعد الملك داريوس بتفسير مضمونها : أيها الفرس إن لم تتواروا في السماء كالعصافير ، أو تختبئوا في الجحور كالفئران ، أو تقفزوا في الماء كالضفادع، فستغدون هدفًا لسهامنا .

2 - المرحلة الرمزية :

تكاد ترتبط هذه المرحلة بالمرحلة السابقة ، إلا أن الإنسان في هذه المرحلة أصبح يعبر عن المعاني المجردة والأفعال ، فأصبحت الشمس مثلا تعبر عن النور والنهار والبياض ، والتاج صار رمزا للملك ، والمفاهيم المجردة يعبر عنها رمزيا ، فالبرودة رمز لها بالمياه الجارية ، وفعل أكل رمز له بإنسان يرفع يده إلى فمه ، يقول ويل ديورانت: ولما كانت بعض المعاني مجردة إلى حدّ يصعب معه تصويرها تصويرا حرفيا ، فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعاني ، فقد كانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التي توحي بها ، لا عن الشيء المصور.

3 - المرحلة الصوتية أو المقطعية :

تعدّ هذه المرحلة مهمة لتأسيس الأبجدية ، إذ اهتدى الإنسان فيها إلى رسم صور وأشكال للدلالة على الكلمات التي يتفق عليها في لغة معينة ، فقد كان الكتاب يقطعون الكلمة الصعبة مقاطع، ويبحثون عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها في النطق والمغايرة لها في المعنى، ويرسمون مجموعة الأشياء المادية التي توحي بها أصوات ، ومثال ذلك كلمة مجلس ، فهي تتكون من مقطعين ، (مج) و(لس) ، فقد اصطلحوا على وضع إشارات رمزية تدل على هذين المقطعين ، بحيث يتم استخدامهما في جميع الكلمات التي يرد بها هذان المقطعان .

4 - المرحلة الأبجدية :

وهي المرحلة التي تطورت فيها الكتابة من الكتابة بالمقاطع إلى الكتابة بالحروف ، بحيث يقابل كل صوت حرف واحد ، ويرجع الفضل إلى الفينيقيين في اختراع هذا النوع من الكتابة ، والذين سكنوا بلاد الشام ، وقد اكتمل هذا النجاح عندما وضعت جثة احيرام ناووسه في جبيل ، حيث استخدم في الكتابة المحفورة على غطائه اثنان وعشرون رمزًا اصطلاحيا تقابل اثنين وعشرين حرفا صحيحا، فكانت هذه الكتابة مصدر الأبجديات التي انتقلت إلى اليونان والإغريق ، واعتمدت عليها اللغات السامية كذلك ، لتنتقل هذه الأبجدية إلى جميع الحضارات المتوسطية عن طريق الإغريق .